القصة في الأدب الفارسي القديم

دراسة تحليلية

د.رمضان رمضان متولي (*)

لكل أمة من الأمم قصص، فأي أمة لا تنشأ ويشب أهلها عن الطوق دون أن تجتاز مراحل من المخاوف والملمات تتجلى فيها أعمال أبطالها، وبغير أن تنشئ رجالا أبطالاً عظاما يثيرون إعجابها وخيالها. وعلى هذا النحو نشأ تاريخ الأمم كلها.

فالناس يقصون ويتغنون قبل أن يكتبوا. وعلى هذه القصص إعتمد المؤرخون الأولون. وقد عرفت الملاحم في أخبار هيرودوت المأثورة عن العصور الأولى وعادة ما يجد فيها القاص مادته الدرامية فينسج منها آثاراً أدبية محافظاً على مادتها وصورتها ما وسعه الجهد، فإن مكنته مواهبه في التعبير عن مشاعر الناس وحماستهم تلقف الناس قصته واستغنوا بها عن الأقاصيص التي انطوت فيها. فتضيع هذه الأقاصيص. حتى يتعذر على مر الزمان المقارنة بين الملاحم والروايات التي نسجت منها. ولهذا فإنه ينبغي على الشاعر أو القاص أن يضع نصب عينيه أن تكون مادة ملحمته أو قصته مأخوذة أو منسوجة من أقاصيص أمته(١).

وقد عرفت القصص ذات الطابع الشعبي " المنظومة " عند كثير من الأمم القديمة والحديثة، ففى الآثار المصرية قطع من الشعر تعبر عن قصص واسعة منها شعر بنتاهور. وللعبرانيين ملاحم حفظت التوراه بعضها. وعند الهند قصتا. "المهابهارتا، والرامينا " وعند اليونان ملاحم يقال إنها سبقت الإلياذة والأوديسا حتى قيل إنه عد لقدماء شعراء اليونان سبعون منظومة كالإلياذة والأوديسا. وفي أوروبا، ذكر المؤرخون أن لدى شعوبها ملاحم عديدة من أشهرها "

---

* – محرر أول بوزارة الإعلام سابقًا .

الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي أليجيري. والفردوس للشاعر الإنجليزي ميلتن، واشتهر عند الفرنسيين أغاني رولان، وللفلنديين منظومات كثيرة جمعها إلياس لنرت سنة ١٨٣٥ م ونظمها في ملحمة أطلق عليها إسم " كالوالا .. " وللعرب قصص في جاهليتهم وإسلامهم ولكن ليس فيها قصة يسوغ أن تسمى ملحمة. لكن بعض الباحثين يقولون إن سفر أيوب في التوراة أصله عربى.

أما عن الفرس فهم أمة مولعة بالإطناب في شعرهم كلفون بالقص والإسهاب فيه يقول الشاعر العربي:

. ولا يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان عير الحى والوتد
. هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشج فلا يرثى له أحد

فالشاعر العربي لا يرى في ذلة الوتد إلا أنه يشج بينما يقول الشاعر الفارسي:

دشمنانت همچو ميخ خيمة ميخواهم مدام
تن بخاك وسر بسنك وريسمان بركردنش

ومعناه

أرجو أن يكون أعداؤك كوتد الخيمة أبداً
جسمه للتراب ورأسه للحجر، والحبل في عنقه

فقد أدرك الشاعر الفارسي في مذلة القيد ثلاثة أشياء.

وقد يصلح هذا المثل لتبيان الفرق بين الشاعر العربي وأخيه الفارسي في أسلوب تناول كل منهما وتميز الشاعر الفارسي بالتفصيل والإسهاب.

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم:

إن ما قرأناه في التاريخ من أن قصة يوسف التي قصها القرآن الكريم لم يتصد لنظمها شاعر عربى واحد، على حين كلف، بنظمها، شعراء الفرس وافتنوا بنظمها افتنانًا، حتى بلغ عدد من نظمها منهم ما يزيد على ثمانية وعشرين شاعرًا، واقتدى بهم شعراء الترك فنظمها عشرون من شعرائهم. وبلغ من نظم قصة كليلة ودمنة في الفارسية زهاء أربعة أمثال الأصل العربي بما فصل فيه الوصف وكررت العبارات.

وتأكيدا لكل ما ذكرناه.. يقول إبن الأثير في "خاتمة المثل الثائر"[٢]، في تعديد الفروق بين الكتابة والشعر : " والثالث أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة في شعره، واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك فإنه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه بل يجيد في جزء قليل، والكثير من ذلك رديء غير مرضى. والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشرة طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة. وهو مجيد في ذلك كله، وهذا لا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه. وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها. فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا، وهو شرح قصص واحوال. ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه.

هذا .... والقصة الفارسية قديمة قدم الأدب الفارسي وهي أوسع جوانبه انتشارا وأكثرها إشراقا وإيغالاً فيه. وجذورها ضاربة في أعماق تاريخ الأمة التي أنجبت هذا الأدب، حتى لنراه في بدايته أساطير وروايات كان الناس قبل أن يعرفوا الكتابة يتناقلونها شفاها على سجيتهم دون تدقيق أو تحقيق، ويزيدون فيها وينقصون ما شاء لهم الهوى والخيال ومختلف النزعات. ولكنها على كل حال بداية لابد منها للمؤرخ يستطيع أن يستنبط منها أشياء كثيرة من أخلاق وعادات وحضارات ومعتقدات. إذ الأساطير في أية صورة نتاج البيئة الناجمة منها، ووليدة ما كان يدور في أذهان أهلها، ورواتها وإيمانهم بها، فهي مرآة تعكس أحلامهم وآمالهم، وعقائدهم وأخلاقهم، ومثلهم وأسلوب معاشهم، وما وصلوا إليه في مدارج الحياة البشرية على الأرض التي

كانوا يعيشون فوقها وعلاقتهم بالأمم البشرية، وعلاقاتهم بالأمم المعاصرة والمجاورة لهم، وهي همزة الوصل بين ماضيهم الحالم البهيم، وما تلاه من عصور تسلطت عليها أضواء التاريخ الواعي وظلاله المتباينة [٣].

والأمة الإيرانية ترجع أصولها إلى السلالات الهندوربية وقد انفصلت عن هذه السلالات. حوالي الألف الثالث قبل الميلاد . جماعة سموا أنفسهم (الآريين) أي الأشراف . تمييزا عن بقية الشعوب الهندية الأوروبية.

وعاشت مدة في أرض أسموها (أئيرينه ونجه Airyana – Vaegah) أي وطن الآريين.

فإذا رأينا بالأساطير الفارسية شبها بالأساطير الهندية، فذلك راجع إلى مشتركات انحدرت مع الهنود والفرس إلى أوطانهم الجديدة من البيئة التي كانوا يتعايشون فيها أمة واحدة قبل النزوح إلى الهند وإيران، وما نقله الايرانيون في العصور المتأخرة من كتب الهنود وأسمارهم، مثل كتابي كليلة ودمنة وسندباد نامه، وما أضافوه بعد ذلك في بيئتهم وما نقلوه عن أبناء عمومتهم.

وبمرور الحقب والآماد تجمع لدى الإيرانيين رصيد كبير من الروايات والأساطير، أدرك بعضه عصر التدوين، ونعني به العصر الذي اهتدى فيه البشر إلى معرفة الكتابة، فدونوا منه ماراقهم في كتبهم الدينية وبعض الكتب الأخرى إلى جانب الروايات التي بقيت جارية على ألسنتهم.

ثم جمع هذا التراث مبوبا توبيبا زمنيا في أواخر العصر الساساني[٤] ودون باللغة البهلوية في أسفار عرفت باسم) (خداينامك) أو(خداينامه) أي كتاب الملوك وسيرهم .. هذا ... ومن الكتب التي اشتهرت في ذلك العصر وخاصة في عهد كسرى أنو شروان (٥٣١ – ٥٧٩ م) يذكر المؤرخون : كتب : " آيين نامه . تاج نامه، كاه نامه، تنسر نامه كارنامك اردشير. وفي هذا الصدد يقول د / يحيى الخشاب إن كسرى لم يكتف بالحضارة الإغريقية الرومانية ولكنه بعث طبيبه برزويه . صاحب المقدمة المشهورة لكتاب كليلة ودمنه. إلى الهند ليحضر إليه هذا الكتاب وكلف النقلة بنقله من السنسكريتية إلى البهلوية، وهذا الكتاب معروف حتى اليوم في الهند، بنجاتنترا panchatantra والذي ذاع صيته باللغة العربية (كليلة ودمنة).

ثم إن كسرى أنوشروان يشر بنقل رواية بوذية إلى اللغه البهلوية وهي " بلوهر وبوذاسف ." ويقول كريستنسن إن أصل هذه الرواية قد فقد ولكننا نعرفها في ترجمة عربية عن البهلوية وقد أخذت منها ـ عن طريق ترجمتها السريانية . القصة اليونانية المعروضة بهذا الإسم Barlaam et Yoasaph كما أخذت من هذه قصص كثيرة في أوربا في العصور الوسطى.

وجاء في " الفهرست " (ص ١٦٣) أن أبان بن عبد الحميد نقل من كتب الفرس وغيرها كتاب " كليلة ودمنة " وكتاب " بلوهر وبوذاسف " الزهر وبرادسب . ولاحظ vagda أن المانوية[٥] عنوا بتاريخ شباب بوذا، واستخدموه في الدعوة لمذهبهم.

وفي العصر الإسلامي (القرن الخامس الهجرى)، جمعت النسخ المختلفة لكتاب الخداينامه وقوبلت ببعضها البعض، وترجمت إلى الفارسية الحالية، وعرفت في صورتها الجديدة باسم (شاهنامة) بنفس المعنى. هذا إلى جانب كتاب هام عرف آنذاك " بـ هزار افسانه " وقد أشار إليه ابن النديم في كتاب " الفهرست " وهو الكتاب المعروف الآن بكتاب" ألف ليلة وليلة " ثم تبارى شعراء الفارسية في نظم هذه الشاهنامات وغيرها من الآثار القصصية، فتحولت من صورتها المنثورة إلى ما يعرف في عصرنا الحاضر باسم الملاحم[٦]. ونعني بها المنظومات المطولة في قصص البطولة، أيا كان نوع هذه البطولة، ولكنها في صورتها الشعرية أيضا اختلفت في الفارسية باسم (شاهنامه).

فأبو جعفر الرودكي أقدم شعراء الفرس العظام المتوفى سنه ٢٢٩هـ. نظم كليلة ودمنة بالفارسية.

والعنصرى المتوفى سنة ٤٣١هـ، شاعر السلطان محمود الغزنوى نظم قصة "وامق وعذراء" وأربع منظومات أخرى، ولا ندرى أأخذ عن كتاب سهل بن هارون الذي سماه الوامق والعذراء أم لا . وقد نظمها في البحر المتقارب كشهنامة الفردوسى.

وأبو عبد الله الأنصاري الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٤٨١هـ كتب قصة يوسف وزليخا نثرا.

وفخرى الجرجاني شاعر السلطان طغرل بك السلجوقي نظم قصة ويس ورامين.

ونظامي الكنجوى المتوفي في حدود سنة ٦٠٠هـ نظم خمس قصص عرفت باسم خمسة نظامي منها ليلي والمجنون. واقتدى به من بعد بعض شعراء الفرس والترك فحرصوا على أن يكونوا أصحاب " خمسة.

والأمير خسرو الدهلوى المتوفى سنة ٧٢٥هـ نظم خمسة منها ليلى والمجنون أيضا، وزاد قصصا أخرى.

وآذرى أحد شعراء السلطان شاهرخ بن تيمورلنك، نظم يوسف وزليخا.

وعبد الرحمن الجامي الشاعر الصوفي الكبير المتوفى سنه ٨٩٨ نظم أكثر من ست قصص منها يوسف وزليخا وليلي والمجنون.

ومكتبي الشيرازي المتوفى سنه ٨٩٥ هـ نظم قصة ليلى والمجنون.

وهاتفى الجامي المتوفى سنة ٩١٨ هـ، إبن أخت عبد الرحمن الجامي، نظم" خمسة " أيضا منها ليلى والمجنون، وزاد قصصا أخرى.

ووحشى الكرماني اليزدي المتوفى سنة ٩٩٢ هـ نظم قصة خسرو وشيرين وغيرها.

وناظم الهروى المتوفى سنة ١٠٥٨هـ نظم قصة يوسف وزليخا.

ونامي من شعراء القرن الثاني عشر، في عهد الملك نادر شاه، نظم ليلي والمجنون، ووامق وعذراء، وخسرو وشرين.

والصوفية من شعراء الفرس كثيرا ما يتخذون القصص وسائل لبيان طريقتهم، وشرح ما دق من إدراكهم وإحساسهم، فالعطار كتب منطق الطير وقصصا أخرى، وجلال الدين الرومي مولع بضرب الأمثال من القصص ينتقل من واحدة إلى أخرى حتى يوفى بالقارئ على الغاية مما يريد.

وفي هذا برهان واضح على ما في طباع الفرس من الولوع بالقصص، وقد صار هذا سنة فيهم جرى عليها المطبوع وغير المطبوع منهم.

هذا عدا الشهنامة والملاحم التي نظمت محاكاة لها) [٧].

وتعتبر شهنامة الفردوسي القمة التي انتهت إليها الملحمة الفارسية في العصر الإسلامي، فقد فاقت في عدد أبياتها ما قبلها وما بعدها من كتب الملاحم الفارسية. فهي تضم ستين ألف

بيت من الشعر شاملة لتاريخ الأمة الفارسية ويصفونها بقولهم : " إنها قرآن القوم وسجل خالد خلود الزمن بتاريخهم وأناشيد مجدهم وديوان لغتهم القومية التي اتصف بها الفرس منذ أقدم عصورهم، وذلك لما عرفوه من أهمية كبيرة لمحتوياتها خاصة فيما يتعلق بالأساطير والخرافات الشعبية والمعتقدات الدينية. وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منها. وقد قلده من جاء بعده من كبار الشعراء دون أن يبلغوا شأوه، وإن كانوا قد أبدعوا وأجادوا.

وترجع أهمية شاهنامة الفردوسي إلى أنها نظم لأكبر الشاهنامات المنثورة وأجمعها، ونعني بها شاهنامه أبي منصور، فهي بحق ديوان أمجاد الفرس، وقد كلفه نظمها خمسا وثلاثين سنة، هي أحسن أيام عمره.

ومن العجيب أن جميع كتب الخداينامه والشاهنامات وسائر الروايات القديمة قد اختفت بعد نظمها ولم تبق غير صورتها الشعرية.

وإذا كان الشعر الفارسي قد استأثر بالروايات المطولة في كتب الخداينامه والشاهنامه، فإن الحكاية الفارسية ظلت إلى يومنا هذا خطا مشتركا بين النظم والنثر على السواء ونراها منبثة في كتب الأدب والتاريخ والتصوف في شتى المناسبات حتى لتعد لازمة من لوازم هذه الكتب وهي أكثر طواعية من الرواية، وتؤدي في يسر جميع ما تستخدم فيه من أغراض تهذيبية وتمثيلية وغيرها، وكثيرا ما تجرى مجرى الحكم والأمثال والأبيات الشاردة في أدبنا العربي، ويستشهد بها الإيرانيون حتى في أحاديثهم بمجالسهم الخاصة.

إذا فإني لا أبالغ بتكرار ما سبق أن قلته في بداية هذا المقال من أن معظم شعراء الفرس الكبار شعراء قصة بنحو من الأنحاء، وحتى القلة التي لم تقصد إلى علاج القصة قصدا، لا تخلو آثارها من إشارات وتلميحات إلى قصة أو بطل قصة ولا يمكن فهم ما يقولون دون الإلمام بالجانب القصصى من الأدب الفارسي.

هذا ... وإذا استعرضنا القصص الفارسي الإسلامي، استطعنا تقسيمه من حيث الشكل والصورة إلى قسمين رئيسيين : الأول الرواية وتسمى في الفارسية (دستان) أو (داستان) والثاني الحكاية ويسميها الفرس (حكايت).

فالرواية نعنى بها القصة المطولة التي استأثر بها الشعر فيما بعد، فتحولت إلى ما يسمى في عصرنا الحاضر بالملحمة، وتسمى في الأدب الفارسي (حماسه) وقد ضاعت أصول الرواية القديمة المنثورة فلم يبق لنا منها غير الصورة الشعرية المنظومة.. هذا.. والملحمة الفارسية . كغيرها من ملاحم الأمم الأخرى . ليست إلا الصورة الشعرية البارزة القسمات القوية التعبير لروايات المجد والبطولة، والمغامرات أيا كان ميدانها وعلى أي صورة كانت، يستوى في ذلك أن يكون موضوعها حربيًا أو عاطفياً أو دينيا أو فلسفيا، أو تاريخيا، أو غير ذلك من المواضيع التي تكون مجالاً لبطولة الفرد أو الأفراد [٨].

وقد ينظم الشاعر الملحمة ابتداء دون الرجوع إلى أصل منثور مستمداً موضوعه من الأحداث الجارية في عصره وكتب التاريخ كما حدث أخيرا في الشاهنامات التاريخية مثل (ظفر نامه) لحمد الله المستوفى القزويني وتتضمن هذه الشاهنامة تاريخ إيران منذ ظهور الإسلام إلى عهد مؤلفها وناظمها أى أواسط النصف الأول من القرن الثامن الهجرى وتعتبر تتمة لشاهنامة الفرودوسي المشهورة.

وقد يكون موضوع الرواية حماسيا يدور حول الحروب وأبطالها كقصة رستم أو عاطفياً يدور حول الحب مثل (ويس ورامين) لفخر الدين الجرجاني "وخسرو وشيرين" التي نظمها الفردوسي ضمن أحداث الشاهنامة كما نظمها نظامي الكجنوى، أو دينيا يتناول قصة قرآنية مثل (يوسف وزليخا) المنسوبة للفردوسي ونظمها كذلك عبدالرحمن الجامي، أو تاريخيا مثل (اسكندرنامه) لنظامي الكنجوى، أو مذهبيا مثل (خاورنامه) لابن حسام من شعراء القرن التاسع الهجري وهي قصة تدور حول بطولة الإمام على وبلائه في حرب الإنس والجن.

ويبدو أن هذا اللون من الشعر القصصى لم يكن له مكان مرموق في أدب العرب فلم نسمع أن الشعراء الكبار اتخذوه موضوعا لشعرهم وظلت القصيدة بفنونها المختلفة عماد الشعر العربي في مختلف العصور بينما نرى المثنوى [٩]. منذ نضج الشعر الفارسي يتبوأ المكانة الأولى في أدب الفرس لارتباطه بالقصة الفارسية التي تشغل المكان الأول من هذا الأدب.

نخلص من هذا إلى أن فن القصة هو أوسع جوانب الأدب الفارسي قديمه ووسطه وحديثه وأكثره إشراقا وأرسخه أركانا وأقواه تعبيرا عن الحياة الفارسية نفسها .. وأنه يشغل الجزء الأكبر من هذا الأدب في مختلف أدواره وعصوره، وإن جمهرة شعراء الفرس العظام كالفردوسي والدقيقى والنظامي، وسنائي والعطار والسعدي وجلال الدين الرومي والجامي ومقلديهم كانوا شعراء قصة. كما أن مؤلفى كتب التاريخ والسياسة والنصيحة والأخلاق والتصوف عالجوا القصة.

كما أنه من المعروف لدارسي تاريخ الأدب في إيران أن هذا الأدب إلا أقله أدب قصصى صوفى حكمي أخلاقي، وأن شعراء الفرس ومتصوفيهم وحكمائهم ومؤلفى كتب النصيحة والأخلاق بل وكتاب الأدب والسياسة والتاريخ كذلك قد استعانوا على إبراز معانيهم وتوضيح مراميهم وتقوية قضاياهم بالحكايات.

ومن هنا ندرك ـ في وضوح ـ خطر القصة ودورها الريادي في هذا الأدب.

هذا.. والفن القصصي ـ بوجه عام ـ يقوم على دعائم ثلاث: العرض والتصوير والحوار. فقد يتناول الموضوع الواحد أكثر من شاعر أو قاص، كما هو حادث في قصص يوسف وزليخا وليلي والمجنون وخسرو وشيرين ، ومع ذلك نرى لكل شاعر وقاص طريقته في عرضه للموضوع وتصويره لمواقفه ومشاهده وإجرائه الحوار على ألسنة أبطاله فيكتسى الموضوع المكرر على هذا النحو جدة تبعد عن القارئ سأم الحديث المعاد. وقد بدا ذلك واضحا في القصة الأولى في هذه الدراسة وهى قصة "بيژن ومنيژه" وقد نظمها الشاعر أبو القاسم الفردوسي [١٠] في ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين بيتاً ضمن أحداث كتابه الشاهنامه[١١]. وقد نظمها في البحر المتقارب :

فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن

ولذلك فقد اكتسبت أبيات هذه القصة (طابعين) : الأول الطابع الحماسي وهو الغالب على أبياتها والثاني وهو الطابع الرومانسي .

أما الطابع الملحمي فهو الذي تبدأ به أحداث القصة وذلك بأن كلف كيخسرو ملك إيران بطل قصتنا (بيژن) بمساعدة أهل أرمان[١٢] بتخليصهم من الخنازير البريه التي أتلفت

زروعهم وثمارهم وأهلكت دوابهم وأفسدت عليهم أمور معيشتهم . وبحث الملك بين خواصه وأصحابه عمن يقوم بهذا العمل البطولي مقابل مكافأة عظيمة ، فتصدى بيزن بن كيو للقيام بهذا العمل البطولي غير أبه بمعارضة أبيه له خوفاً على حياته ، ونجح بيزن في هذه المهمة الخطيرة وتعرض للموت مما اثار حسد كركين رفيقه في رحلة الموت ، فدبر مكيدة وضع بموجبها بيزن في طريق (منيژة) الأميرة الجميلة بنت الملك أفراسياب ملك توران وعدو إيران اللدود .. فوقع في حبها وضاجعته وأسكرته وحملته إلى مخدعها في قصر أبيها الذي علم بالأمر من الوشاة ، فأمر بغله بأغلال ثقيلة وألقوه في غيابة جب عميق مظلم ، ثم أجتروا بالفيلة حجراً كان قد استخرجه أكوان الجني من بحر الصين العظيم وأغلقوا به رأس البئر وتركوه فيه حتى يموت .. وقد وظف الشاعر في هذا العنصر بعض الأساطير التي كانت معروفة وسائدة في المعتقد الإيراني قبل الإسلام .. ذلك أن كيو والد بيزن لما أعيته الحيل لمعرفة مكان إبنه ومصيره لجأ إلى الملك كيخسرو الذي لجأ بدوره إلى كأسه الذهبيه الذي تُرى فيه الكائنات في الأقاليم السبعة والبروج الإثنى عشر ، وأنه لما حل يوم النوروز ، لبس الملك ثياب البذلة (قباء رومي) ودخل بيت النار وأدى طقوس العبادة . ثم ابتهل إلى الله خاشعاً متضرعاً ونظر في كأسه وطالع أحوال الأقاليم فرأى بيزن مقيداً بالسلاسل والأغلال في قعر جب عميق . حين ذلك أرسل في استدعاء بطلهم الجبار رستم باعتباره المفزع المستجار في السراء والضراء والشدة والرخاء .

ويأتي العنصر الملحمي الثاني في تركيز الشاعر على بطولة رستم[١٣] حين تقدم إلى رأس البئر المحبوس فيه بيزن ، بعد فشل الفوارس السبعة في إزاحة الحجر الذي سدت به فوهة البئر ، فنظر رستم وحده وبقوته الهائلة التي تفوق قوة الجن ومد يده ورفع تلك الصخرة وألقاها على أجنة بلاد الصين فارتج وجه الأرض من شدة وقعها ، ثم قام بمحاربة أفراسياب وجنده وألحق بهم هزيمة نكراء ، وأعاد بيزن إلى وطنه سالماً غانماً..

وأما الجانب الرومانسي فيتمثل في مشاعر الحب الفياضة الهادرة التي ربطت قلب منيزة ببيزن ، فقد أحبته من النظرة الأولى حين رأته عند شجرة السرو فعشقته وهامت به حباً يسع الدنيا بما فيها ، وربط الحب بين قلبيهما وأعملت الحيلة فأسقوه خمراً وأدخلته في هودجها

واتجهت به إلى قصر والدها الملك وأمضيا معاً أياماً سعيدة هنية . رغم علمها بأنه من بلد عدو لدود لبلدها . إلا أن الشاعر أسقط كل هذه العداوات بعامل الحب والعشق فلم تأبه منيزة بما سيكون عليه عقاب الأب . ولما حل هذا العقاب لم تتخل عن حبيبها وظلت وفية لحبه حتى إنها وهي بنت ملك بلاد توران العظيمة راحت تتسول له الطعام ، وظلت قابعة ليل نهار بجانب فوهة البئر حيث سجن حبيبها وجاهدت جهاداً شاقاً حتى عثرت على البطل رستم وتوسلت إليه ليعمل حيله لإنقاذ حبيبها إلى أن تم لها ما أرادت وصاحبت حبيبها إلى بلده إيران وأقامت معه في سعادة وهناء .

وحتى نرى الصورة كاملةً بما فيها من معاني إنسانية نبيلة تموج بها أحداث هذه القصة فإن ذلك يتجسد لنا في استجابة ملك إيران كيخسرو للاستغاثة الإنسانية التي تقدم بها جماعة من سكان منطقة تابعة لبلد عدو لإيران (توران) . لينقذهم وأهليهم من الخنازير البرية رغم ما في تحقيق تلك الرغبة الإنسانية من مخاطر عظيمة على من سيقوم بهذا العمل البطولي.

كما تتجسد هذه المعاني الإنسانية النبيلة أيضاً في نصيحة الملك كيخسرو لبطلنا بيزن – بعد أن عاد إلى حضن أبيه وقومه – ، فنراه يخلع عليه الخلعة الملكية العظيمة ، ليس هو وحده بل ولحبيبة قلبه منيزة ويوصيه بتلك الحبيبة خيراً قائلاً له : إحملها إلى ابنة أفرسياب . يعني الجواهر والملابس الذهبية . وعاشرها بالمعروف ولا تخاشنها ولا تجف عليها وعيشا معاً في راحة وسرور وغبطة وحبور .

ويأتي المعنى أو المضمون الإنساني الأخير الذي نخرج به من هذه القصة في قبول بيزن شفاعة رستم عن كركين وعفوه عنه رغم ما عاناه من ذل وهوانٍ بسبب غيرتهِ وحسدهِ وحقدهْ .

أما القصة الثانية التي تأتى ضمن موضوع هذه الدراسة فهى قصة "خسرو وشيرين" التي نظمها الشاعر أبو القاسم الفردوسى ضمن أحداث كتابه العظيم "الشاهنامه"، ثم قام بنظمها فيما بعد الشاعر الإيراني خسرو الدهلوى[١٤]. وفي مجال الشعر التركي قام بنظمها ثلاثة من شعراء الترك وهم: "شيخى"[١٥] "وعطائى"[١٦] "وآهى"[١٧]، كما نظم جزءا منها وهو الجزء

الذي يدور حول تعلق "فرهاد" بعشق شيرين الشاعر الإيراني "وحشى"[١٨] كما قام بنظمها شاعر إيرانى آخر هو كمال الخجندى[١٩]، ومن قوله فيها:

صار عقيق شيرين(شفتاها) نصيب خسرو وعبثا ينحت فرهاد الأحجار

هذا ... وما يعنينا هنا، المنظومة التي قام بنظمها الشاعر الإيرانى نظامى الگنجوي الذي عاش في كنف الدولة السلجوقية نهاية القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري.. وهو واحد من الشعراء الثلاثة النابهين الذين يشار إليهم بالبنان لتفردهم في فن الشعر في هذا العصر ومعه: الأنورى[٢٠] والخاقانى[٢١] ورابعهم ظهير الفاريابى[٢٢].

هذا ... ويرى نقاد الأدب الفارسي أن نظامى الگنجوى يعتبر أستاذا للشعر المثنوى الرومانتيكى، وتفوق على كل الشعراء في فنه، فاكتسب شهرة عريضة خلدت ذكره في إيران وتركيا، ولد في مدينة گنجه (عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠ – ٤١م) وله خمس مثنويات تعرف بـ "الكنوز الخمسة"، أولها "مخزن الأسرار"، والثانية "خسرو وشيرين" (٥٧١هـ / ١١٧٥ – ١١٧٦م)، والثالثة "ليلى والمجنون" (٥٨٤هـ / ١١٨٨)، والرابعة "إسكندرنامه" (٥٨٧هـ / ١١٩١م)، والخامسة "الصور السبع" (٥٩٥هـ / ١١٩٩م). وتوفي (٥٩٩هـ / ١٢٠٢ – ١٢٠٣م).

واسم نظامي: إلياس، وكنيته أبو مُحَمَّد، ولقبه نظام الدين، وقد أهدى منظومة (خسرو وشيرين) إلى آخر ملك سلجوقي في إيران وهو طغرل بن أرسلان، ويذكر "براون" أن نظامي هو الشاعر الوحيد بين جميع شعراء الفرس الذي جمع بين الذكاء النادر والخلق الرفيع.

وفي هذه القصة يسير نظامي على نسق "الفردوسى" من ناحية الموضوع والصياغة.. والقصة تصور تصويرا مسهبا مغامرات الملك الساسانى كسرى پرويز "خسرو پرويز"[٢٣] ومحاولاته المتعددة للفوز بحب معشوقته الفاتنة شيرين، التي أصرت حتى اللحظة الأخيرة من مطارداته للفوز بها على ألا يلمس شعرة منها إلا بعد أن يعقد عليها عقدا شرعيا لا مراء فيه، وتشهد

الأحداث نهاية حزينة لمنافسه المهندس الماهر فرهاد" الذي أنهى عمره بيده، في مؤامرة دبرها پرويز للخلاص منه ليفوز بقلب حبيبته شيرين.

اعتمد نظامي في صياغة أحداث قصته على المصادر التي اعتمد عليها الفرد وسي في الشاهنامه، ولكنه تناولها بطريقة مغايرة ابتعد فيها عن الدراسة الموضوعية التي سار عليها الفردوسى، وقدمها في إطار قصة حماسية فاستطاع أن يقدمها لنا في إطار درامي قدم من خلاله مضمونا رومانسيا ناعما، عبر فيه عن غرام المحبين ومشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم وغضبهم ولوعتهم وسهادهم. ولعبت الغيرة دورها المنطقي في إذكاء الصراع الدرامي بتأجيج المشاعر بين الشخصيات الرئيسية الثلاث: خسرو وشيرين وفرهاد.

وقد استعاض نظامي في صياغتها عن البحر المتقارب الذي سار عليه الفردوسي في الشاهنامه، والذي هو بتكوينه وتركيبه وإيقاعه أقرب إلى الشعر الحماسى، فصاغها في بحر الهزج المسدس على هذا النحو: مفاعيلن مفاعيلن فعولن. ويصل عدد أبياتها عند نظامي إلى ما يقرب من سبعة آلاف بيت، بينما يصل عند الفردوسى إلى أربعة آلاف ومائتى بيت.

من هي شيرين؟ يختلف الرواة في شخصية شيرين أهي فارسية أو أرمنية أو رومية، الفردوسي في الشاهنامه يجعلها فارسية. ويقول القزويني في تاريخ گزيدة[٢٤] إنها بنت ملك الأرمن، وقع پرويز في حبال عشقها بعد أن فر من أبيه هرمزد، وبعض الرواة يظنها رومية، وعند بعض مؤرخى الفرس أن شيرين كانت في خدمة أحد أشراف الفرس، وكان خسرو پرويز في صباه ينتاب دار هذا الشريف، فأحب شيرين وأعطاها خاتما، فلما علم صاحب الدار بأمرهما أمر خادمه أن يغرقها، ولكنها نجت ولجأت إلى دير، ولما تولى پرويز سدة الحكم أرسلت إليه الخاتم فتذكرها وأخذها إلى قصره.

أما خسرو پرويز أو كسرى الثاني الملقب پرويز فهو ابن هرمز بن كسرى أنوشروان، وهو الشخصية المحورية الأولي الذي يحمل على كتفيه أحداث القصة أمام الشخصية الرئيسية الثانية: شيرين. وهو أمير وولى عهد إيران. حياته صيد ولهو ومرح وخمر، وتخطيط ليل نهار للفوز بقبلة من حبيبة روحه شيرين. ولديه مستشار شاپور وهو نديم مخلص يعمل جاهدا لإرضاء سيده

وتحقيق رغباته للفوز بلحظة يتذوق فيها سكر شفتى شيرين، وهو رسول أمين بينهما، وهو أيضا مصور بارع رسم صورة سيده وعلقها فوق غصن شجرة لتراها شيرين وتعجب بصاحبها وتعمل جاهدة للقائه.

وپرويز في القصة التي بين أيدينا ليس له دور سياسي يساهم به في شئون الحكم، اللهم إلا توليه عرش البلاد بعد وفاة والده، ثم قيامه بمواجهة مؤامرات عدوه اللدود بهرام چوبين[٢٥]، ثم عجزه أمام جبروت بهرام الذي ألب الشعب الفارسي عليه واستولى على عرشه، مما حمله على الفرار إلى قصر "مهين بانو" (عمة شيرين) في منطقة أذربيجان، وهناك عاد إلى سيرته الأولى في مطارحة شيرين الغرام والهيام والخمر والمجون، إلى أن عنفته شيرين ونصحته بالعمل على استرداد عرشه السليب، فيمم وجهه شطر قيصر الروم الذي زوجه من ابنته مريم، وأمده بجيش جرار هزم به بهرام واسترد عرشه، ثم عاد إلى سيرته الأولى في وصل ما انقطع مع شيرين.

ومن المضامين الإنسانية التي تلفت نظر الدارس لهذه المنظومة، أن المشهد الأول في القصة يوحي بحرص الحاكم الإيراني "الشاه هرمز" على تحقيق العدل بين رعيته ورفع الظلم عنهم، فقد حرص على تعويض الفلاح الفقير الذي أتلف فرس ابنه زرعه، فأمر بعقر الحصان، ثم أمر بتسليم خادم ابنه للفلاح لأن هذا الخادم أخذ عنقود عنب من حديقته. كما يقدم نموذجا للوفاء للمحبوب في أجل وأعظم صوره، فهاهو پرويز، وقد استغل ابنه فرصة – نومه العميق فشق بطنه، واشتدت حاجة پرويز إلى كأس من الماء، كما أحس بحاجته إلى شخص يوقف سيلان الدماء المتدفقة من جرحه الغائر، ولكنه فضل الموت عن – أن يزعج حبيبته شيرين، وآثر أن تنعم بنوم هادئ، حتى وإن أدى ذلك إلى التضحية بروحه، وهو ما حدث بالفعل- فهل هناك وفاء وحب وإيثار أجمل من ذلك؟!

نعم يوجد.. إنه يبرز واضحا في موقف شيرين.. فها هي بعد كل المعاناة التي انتهت بفوزها بالاقتران بمن تحب، تضحى بنفسها في أثره، حيث أخذت مدية شقت بها صدرها وأسلمت روحها إلى بارئها، واضعة شفتيها على شفتي الحبيب ولاصقة جسدها بجسده، لتقدم لنا نموذجا فريدا للمرأة المحبة المخلصة في حبها، كما سبق لها أن قدمت نموذجا للمرأة العفيفة الشريفة التي

لم تكترث بكل المغريات التي قدمها لها حبيبها پرويز للفوز بجسدها، وأصرت على أن يتم ذلك بصورة تتفق وما تقره الشرائع السماوية الحاكمة آنذاك.

أما النموذج الثاني للوفاء والتضحية بالنفس فقد تمثل في شخصية "فرهاد"، ذلك المهندس الغارق في حب شيرين، والذي بذل جهوده الخارقة لشق قناة في جبال صماء شديدة الصلابة؛ لينساب فيها اللبن إلى محبوبته، وأصبح بذلك قاب قوسين أو أدنى من الاقتران بها، لكن القدر كان له بالمرصاد، إذ ألقى بنفسه من أعلى قمة جبل البرز، حين أخبره رسل پرويز – كذبا – بموتها.

ثم يقدم نظامي نموذجا للابن العاق، الذي اشتهي زوجة أبيه، وظن أن في خلاصه من والده سيصبح الطريق ممهدا إلى قلبها، فأقدم على الخلاص من والده غيلة.

وخير ختام لهذه المنظومة الجميلة أن نورد هنا بعض الأبيات التي وردت على لسان فرهاد حينما بلغه خبر موت حبيبة قلبه شيرين، يقول الشاعر فيها ما ترجمته:

فلما سمع فرهاد هذا الخبر، سقط من فوق الجبل كقطعة من الحجر!
وأخرج زفرة حزينة من كبده، كما لو أصابت كبده حربة ذات رأسين فمزقته!
فقال في لوعة: يا أسفا على المشاق التي تحملتها وقدمت دون أن أظفر بالراحة!
ويا حسرتاه على مجهودي الضائع، وعلى أملي الخائب!
فما النتيجة التي حصلت عليها من شق الصخور ولم يتيسر مطلبي، وازدادت مشقتي؟!
وكنت جهولا أطمع في اليواقيت، فلم أظفر بها ولم أصب إلا الحجارة التافهة!
واشتعلت نيران الدمار في بيدري، ثم أغرقني البلاء في طوفانه!
وخلت الدنيا من الشمس والقمر، وخلت الخمائل من الزهر والشجر!
وانطفأ المصباح المضيء، فلم تغب عني شيرين، بل غابت عني الشمس المشرقة!
وهذا هو الفلك الغادر لا يشفق على مظلوم، ولا يرعى برحمته محرم!
فيا أسفا على هذا الكوكب الذي أصابه الخسوف فجأة!

ولقد بكت جميع الكائنات على قلبي المحزون، لأن ماء حياتي قد غاض في الظلام!

ولأي سبب يقع الفراق بيني وبين حبيبتي؟ ولماذا أبقى في هذه الدنيا وقد ذهبت عنها "شيرين"!

ولو قسم لي البقاء بغير "شيرين" لانخلعت عظامي من جسدي!

ومئات من الحملان تمر أمام الذئب الجائع ولكنه لا يخطف إلا حمل الفقير المسكين!

وقد وقعت شجرة السرو الطويلة.. فحق لي أن أهيل التراب على هامتى!

وانتثرت أوراق الورد الباسمة. فحق للبستان أن يصبح سجنا لى!

وطارت طيور الربيع البهيجة، فلماذا لا أنوح في لوعة كالسحب الراعدة!

وانطفأ السراج اللامع، فلماذا لا يستحيل نهاري المشمس إلى ليل دامس!

وخمدت أنفاسي لحسرتي وكربي، واصفرت "شمسي" لغياب "قمرى" وموضع حبي!

وسألتحق بـ"شيرين" في طيات العدم، وسأهرع إليها في قفزة واحدة(٢٦).

ثم صلى على "شيرين" وترحم على عشقها، وقبل الأرض على ذكرها، ثم أسلم روحه إلى بارئها.

أما القصة القصة الثالثة في موضوع هذه الدراسة هي قصة " يوسف وزليخا" : والتي تنسب لشاعر الفرس العظيم أبو القاسم الفردوسى.

ويرجع اختيارنا لتقديم دراسة عن هذه القصة كنموذج للأدب الفارسي القديم لتميزها وتفردها بمنزلة مهمة وطابعا خاصا في القرآن الكريم وفي سائر كتب التنزيل. فبينما يرد القصص القرآني في حلقات تتناسب كل حلقة فيها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهاتها، نرى سورة يوسف محتوية على القصة كاملة، وحتى القصص الذي ورد كاملا في سورة واحدة . كقصص هود وصالح وشعيب ورد مختصرا مجملا . أما قصة يوسف فقد وردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة، وصيغت في بناء فنى محكم يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه

من الصور والمشاهد كما يجعل الجمال الفني فيها أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيما يخاطب حاسة الوجدان الفنية بلغة الجمال..

كما كان لقصة يوسف وضعا متميزا في كتاب التوراة حيث انفردت بسفر كامل في مقدمة أسفار التوراة وهو سفر التكوين..

ومنذ بدأ الاشتغال بتفسير القرآن الكريم نرى القصة تستحوذ على جانب كبير من اهتمام كافة علماء التفسير وعدد كبير من العلماء المشتغلين بدراسة الأديان والذين أفردوا لها فصولا غزيرة من كتبهم ودراساتهم وأبحاثهم..

ثم كانت ـ وما تزال ـ موضع اهتمام وعناية من الأدباء والكتاب في مشارق الأرض ومغاربها كمادة درامية صاغوها في قوالب أدبية وفنية اصطبغت بلون شعبي قريب من قلوب الخاصة والعامة على السواء ..

أما في مجال الشعر فقد حظيت القصة بقدر كبير من عناية الشعراء واهتمامهم حتى صارت من أحب الموضوعات إلى شعراء إيران.. فقد كان من أثر تغلغل الإسلام في نفوس الإيرانيين طيلة القرون الثلاثة الأولى للهجرة واضطراب الأوضاع وعدم الاستقرار في أمور البلاد أن سادتها روح إسلامية صوفية، ودفعته إلى الاتجاه نحو القصص ذات الطابع الديني.

وكان لقصة يوسف تأثير عظيم في نفوسهم فراح الواحد تلو الآخر يتخذ منها مادة وموضوعا وإطارا لمنظومات طويلة اشتهرت على مر الأزمان وتعاقب العصور ووضعت أسماءهم في سجل الخالدين حتى بلغ عدد الآثار المنظومة لهذه القصة ثمانية وعشرين أثرا، اندثر معظمها مع الزمن وبقى منها ثمانية منظومات هي منظومات : الفردوسي والجامي وناظم هروى وآذر بيكدلي وشعله كلبايكاني وجوهر تبريزى وشهاب ترشيزى وخاورى..

هذا وتعد المنظومة المنسوبة للفردوسى أوسع هذه المنظومات انتشارا وأعلاها قدرا، ولذا فقد طبعت عشرات المرات، وتناولتها أقلام المؤرخين والأدباء والنقاد بالدراسة والنقد والتحليل.. ويبلغ عدد أبياتها خمسة آلاف وتسعمائة وستة وثلاثين بيتا من الشعر، نظمها الشاعر في البحر المتقارب..

فعولن فعولن فعولن فعولن

فعولن فعولن فعولن فعولن

هذا والقصة التي بين أيدينا . والتي إحتوتها منظومة الفردوسي . تتصل بالفن القصصي بسبب وثيق حيث يتوافر لها عدد من العناصر الفنية التي قررها نقاد هذا الفن.. وأول هذه العناصر اعتمادها على فكرة استقاها الشاعر من القرآن الكريم وهي حسد إخوة يوسف له وحقدهم عليه بعد أن قص عليهم رؤياه الأحد عشر كوكبا. وكان جل اعتماد الشاعر لصياغة هذه الفكرة في قالب قصصى قائما على شخصية يوسف عليه السلام وما تزخر به من أحداث تاريخية معروفة ومقروءة في التوراة والقرآن الكريم وقصص الأنبياء. كما كان ذلك دافعا له إلى اختيار اسم يوسف عنوانًا لهذه القصة حتى يضمن لها منزلة رفيعة بين القصص التاريخية باعتبارها تدور حول حياة نبى كريم. كما وضع اسم زليخا ضمن هذا العنوان كي يضمن لها رواجا شعبيا على اعتبار أن زليخا تلعب دورا هاما في حياة يوسف داخل الإطار العام للقصة.

وتشكل حادثة المؤامرة على قتل يوسف اللبنة الأساسية التي اعتمد عليها الشاعر في بناء أحداث قصته، وقدم لهذه الحادثة بمجموعة من الحوادث التمهيدية التي تمثلت في الرؤى الثلاث التي رآها يوسف ويعقوب والتي كانت نتيجتها اشتعال نار الحقد في قلوب الإخوة تجاه يوسف، حتى جاءت رؤيا الأحد عشر كوكبا بمثابة حافز ودافع إلى انتقال الشاعر بالقصة من مرحلة وصف الأحاسيس الإنسانية إلى مرحلة الفعل، وذلك في صورة ترتيب مؤامرة للتخلص من يوسف انتهت بالقائه في الجب، ثم نراه يبذل جهدا طيبا في ترتيب أحداث قصته في تسلسل منطقى أدى إلى تفاعلها وتشابكها في وحدة موضوعية دفعت بأحداث القصة إلى " الذروة " التي تشكل أدق عناصر القصة في فنونها المختلفة. ولهذا نرى الشاعر ينقل مسرح الأحداث من بيت العزيز إلى حيث يوسف في السجن بضع سنين إلى أن تذكره ساقى الملك حين رأى الملك رؤياه " السنبلات والبقرات السبع " وحار المفسرون والمنجمون في تأوليها . وكان إبراز الشاعر لدور يوسف في تفسير رؤيا الملك. باعتبار ذلك ملمحا أساسيا من الملامح

الرئيسية لشخصية يوسف اتجاها منه إلى حل عقدة القصة والاتجاه بها نحو " النهاية " التي هي آخر عناصر البناء الفني للقصة.

وعند محطة النهاية نلتقى بيوسف وقد اعتلى عرش مصر يتبوأ من الدنيا حيث يشاء، ويقدم عليه إخوته طلبا للغلة، فيحتجز أخاه بنيامين في دين الملك، إلى أن يعترف إخوته بجريمتهم في حقه. ويلتئم شمل أسرة يعقوب حين ينتقل الجميع إلى مصر حيث العزيز" يوسف " ويسجد الجميع له.. وبذلك تتحقق الغاية من القصة.

هذا .. وقد وفق الشاعر في توظيف العناصر الأخرى للبناء القصصي فاهتم بخلق مجموعة من الشخصيات المساعدة " إخوة يوسف "، والده، زليخا. نسوة مصر، العزيز، أصحاب القافلة، صاحبي السجن، المربية " وذلك كي تخدم الشخصية المحورية " يوسف" ، حيث ساهمت بمجموعة من الأفعال والأحداث التمهيدية والمساعدة. إضافة إلى دورها الهام في إثراء " الحوار " الذي هو جزء هام من مكونات الشخصيات بما يعكسه من مواقف لها داخل الإطار العام للقصة.. كما حرص الشاعر على تصوير الانفعالات النفسية لأبطال قصته وإعطائها الدور المناسب للمساهمة في تطوير أحداث القصة والوصول بها إلى غايتها المنشودة.

ويحمد للشاعر اختياره " الشعر " أداة لصياغة أحداث قصته على اعتبار أن لغة الشعر هي لغة العاطفة القادرة على بعث صورة إيحائية قادرة على تصوير النفس الإنسانية وإبراز مكنوناتها وانفعالاتها. فالجملة الشعرية لها رنينها وجرسها وإيقاعها الموسيقى السريع النفاذ إلى أعماق النفس البشرية.. إضافة إلى أن الشعر يستعين بالموسيقى الكلامية التي هي أقوى الطرق الإيحائية، فالموسيقى طريق السمو بالأرواح والتعبير عما يعجز التعبير عنه. خاصة وأن قصة يوسف قصة ذات طابع إنساني تلعب فيها العواطف والانفعالات دورًا رئيسيا في تطوير أحداثها.

يضاف إلى ذلك أن طول أحداث القصة وانتقالها بين بيئات وأزمنة مختلفة وتمثيلها لفترة تاريخية طويلة يجعل من الشعر الأداة المناسبة لتصوير مثل هذه الأحداث والانتقال بين أجواء مختلفة وأزمنة تاريخية متباعدة..

هذا ... ويجمل بنا أن نقدم تحليلا تفصيليا للعناصر الفنية التي قام عليها البناء الفني يوسف وزليخا ... وأول عناصر هذا البناء هو عنوان القصة.... عنوان قصتنا هو يوسف وزليخا " وقد أحسن الشاعر صنعا حين اختار هذين الاسمين عنوانا لقصته موحيا لنا بأن أحداث القصة ستدور حول هاتين الشخصيتين " يوسف" النبي الكريم، " زليخا زوج العزيز.. وهو اختيار موفق من الشاعر، إذ أن سيدنا يوسف شخصية تاريخية ودينية الناس ـ في كل زمان ومكان ـ قراءة تفاصيل ما حدث له من محن وابتلاء وخطوب. كما أن اختيار هذين الاسمين عنوانًا للقصة يوحى للقارئ بأن هناك شخصية أخرى تشارك يوسف أحداث حياته.

كما أن هذا العنوان يأتي منسجما مع النهاية التي وضعها الشاعر للقصة على نحو ما سيرد في السياق..

والعنصر الثاني من عناصر البناء الفني هو " مقدمة القصة ". وقد بدأ الشاعر مقدمة قصته بحمد الله والثناء عليه وعلى رسوله مُحَمَّد وأهل بيته. ثم يبلغنا بعد ذلك بأن الله– جل وعلا ـ قص على رسوله قصص الرسل والأنبياء السابقين، وأن النبي لم يتأثر من بواحدة تلك القصص كما تأثر بقصة يوسف عليه السلام، وذلك بعد أن علم من جبريل – عليه السلام ـ بما سيقع على سبطيه " الحسن والحسين " من ظلم وقسوة وجفاء. واتخذ الشاعر من تلك المقدمة مدخلا إلى قصة يوسف ليربط بين ما حدث ليوسف من ظلم على يد اخوته وذويه وما أنبأ به جبريل رسول الله بما سيحل بسبطيه من ظلم وجفاء...

وقد أحسن الشاعر صنعا حين اختار هذه المقدمة التي جعلت القارئ يتأثر وتتحرك مشاعره مشاركة لمشاعر النبي في تأثرها وحزنها وألمها على ما سيحدث ـ وما حدث بالفعل ـ لسبطيه من بعده. وأثار بذلك عنصر التشويق عند القارئ ليسارع إلى قراءة أحداث قصة يوسف عليه السلام كما أحسن اختيار الأسلوب الذي عرض من خلاله تلك المقدمة وذلك حين اختار آيات من القرآن الكريم [٢٧]. من سورة يوسف ـ ليشعر القارئ أنه مقبل على قراءة قصة ذات وقائع حقيقية حدثت ووردت في الكتاب الكريم، وسمعها النبي نفسه من جبريل عليه السلام. كما أنه استطاع من خلال تلك المقدمة أن يقدم لنا نبذة تمثل " مدخلا" للفكرة الأساسية

للقصة والجو العام الذي سيعرض القصة من خلاله.. وكذلك نوعية القصة – باعتبارها قصة تاريخية ذات وقائع حقيقية ومحددة ولها شخصيات حقيقية ورد ذكرها في القرآن الكريم.. واستمرارا في حرص الشاعر على أن يضفى على مقدمة القصة جوا من الصدق فقد ذكر لنا أنه إنما يقدم هذه القصة توبة وندما على ما أضاعه من عمره في نظم قصص الفرس وحكاياتهم التي كانت بمثابة نوع من الحمق ضيع فيه زهرة شبابه[٢٨].

من هنا جاء اختياره لفكرة القصة والتي استقاها من القرآن الكريم وهي حسد إخوة يوسف له وحقدهم عليه بعد أن قص عليهم رؤياه الأحد عشر كوكبا. وكان جل اعتماد الشاعر ـ لتحقيق فكرة القصة – قائما على شخصية يوسف باعتبارها الشخصية المحورية التي تدور حولها المؤامرة التي دبرها إخوته لتحقيق مرادهم في التخلص منه وابعاده ليخلوا لهم وجه أبيهم ويصبحوا من بعده قوما صالحين. لهذا رأينا الشاعر يوظف " حسد الإخوة " توظيفا دراميا بعد أن جسده في مجموعة من الحوادث التمهيدية في القصة بحيث أصبح جزءا رئيسيا من الفكرة الأساسية للقصة.

وأول الحوادث التمهيدية التي لعب فيها " الحسد " دورا رئيسيا هو حادث مائدة اسحق وما نتج عنها من حقد وحسد وعدواة بين الأخين مما اضطر يعقوب إلى الهرب ليلا من موطنه في أرض كنعان والإقامة عند خاله لا بان بأرض الشام.

وتشكل الرؤى التي حدثت في هذه القصة عنصرا هاما من عناصر البناء الفني للقصة، إذ أنها– في مجموعها – تكون سلسلة من الحوداث التمهيدية والفرعية – والتي ساهمت بشكل مباشر–. في تطوير أحداث القصة في مراحلها المختلفة كما كانت عنصرا فعالا في تكوين مجموعة من ردود الأفعال عند شخصيات القصة.. وقد أورد الشاعر ـ نقلاً عن التوراة ثلاث رؤى قبل رؤيا الأحد عشر كوكبا. وقد أحسن الشاعر صنعا بتقديم الرؤى الثلاث حتى لا يفاجئنا بالحديث مباشرة عن رؤيا يوسف الرئيسية وإنما مهد لذلك بعرض الرؤى الثلاث، وما تولد عنها من مشاعر إنسانية متباينة بين اشتداد خوف يعقوب على يوسف من ناحية، وازدياد حقد الإخوة عليه من ناحية أخرى، ثم شروعهم في تنفيذ مؤامرتهم للتخلص منه.

رؤيا صاحبى السجن : تشكل هذه الرؤيا علامة بارزة في حياة يوسف، فبعد هذه الرؤيا تحول يوسف إلى دوره المنوط به كنبى مرسل وراح يدعو أصحاب السجن إلى الإيمان بالله الواحد الأحد القهار.

رؤيا ملك مصر : وكانت هذه الرؤيا بمثابة فتح جديد في حياته إذ أعلن الملك عقب نجاح يوسف في تفسيره هذه الرؤيا – براءة وطهارة ذيله مما نسب إليه ظلما من قبل زوجة العزيز ونسوة مصر، وخرج يوسف من ظلمة السجن ليتقلد منصب العزيز وليمكن الله له في الأرض ليتبوأ منها حيث يشاء.

هذا .. وبالإضافة إلى الدور الذي لعبه عنصر الرؤي في تطوير الحدث الدرامي للقصة . باعتباره يشكل مجموعة من الحوادث التمهيدية والفرعية . فإن هذا العنصر جاء متفقا مع الطابع الديني للقصة، حيث عادة ما تفسر الرؤى على أنها من الأشياء القريبة من أمور الوحي والتي لا بد أن تصدق وتقع في الحياة كما أن هذه الرؤى وما أنبأت عنه من صدق يوسف وعلمه وفضله وتوفيقه في تفسيرها تعد علامة من علامات نبوته وسمة من السمات التي اتسمت بها شخصيته والتي اكتسبت نوعا من القداسة في الأقوال والأفعال. وتمثل حادثة المؤامرة اللبنة الرئيسية في بناء أحداث القصة فمن خلالها شرع المؤلف في بناء القواعد الرئيسية لهيكل قصته.

وقد حرص الشاعر في عرضه لحادثة المؤامرة على رسم صورة توضح تردد الأخوة وحيرتهم حول الطريقة التي يريدون اتباعها في التخلص من يوسف، ونراهم في هذه الصورة وهم يرددون الأمر بين جانبين : جانب القتل وجانب الالقاء في الجب. وندرك من سياق الأحداث أن قد رجح الأمر الأخير. ثم نلحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملي. فهم يحتالون على أبيهم لحمل يوسف للعب معهم بعد أن أكدوا له حرصهم على المحافظة على يوسف وهو يخاف أن يأكله الذئب، وهم يقسمون أن هذا لن يكون ولن يحدث وهم عصبة أولو قوة. ثم يمضون بأخيهم حيث أرادوا وخططوا . وفي العشاء يعودون إلى أبيهم باكين وزاعمين أن الذئب أكل يوسف.. وقد حرص الشاعر على إبراز صورة للجو العام للمؤامرة. فنراهم في هذه الصورة وقد

حرصوا على التخفي في ظلمة الليل كي لا يفضح ما إرتدوه من أقنعة زائفة وباطلة. كما بينت الصورة خوف يعقوب من أن يأكله الذئب. والتجاوب بين خوف يعقوب والاعتذار . الذي قدمه الاخوة . مهارة في التناول للحادثة وفق المؤلف في عرضها في صورة شعرية متقنة تثير مشاعر الحزن في نفس القارئ وتدفعه إلى مشاركة يعقوب فيما حل به من حزن وألم على فقد يوسف. واستكمالا لوصف الصورة التي رسمها الشاعر لمؤامرة الإخوة نراهم وقد ذهبوا إلى الصحراء مرة أخرى واصطادوا ذئبا لطخوا فمه بدم كذب وعادوا به إلى والدهم لإثبات صدق دعواهم. إلا أن الله جلت قدرته كشف زيفهم وبطلان دعواهم فاستجاب لدعاء يعقوب وانطق الذئب وحاوره يعقوب وعلم منه الحقيقة كاملة. وقد حرص الشاعر على تضمين قصته ما دار من حوار بين يعقوب والذئب، والذي اتضح من خلاله أنه ذئب مسكين ضاع ولده في الصحراء فقدم أرض كنعان بحثا عنه حتى أوقعه مصيره التعس بين أيدي أبناء يعقوب، ليقف في النهاية بين يدي يعقوب متهما بجريمة هو برئ منها. ونقرأ من دفاعه قوله:

إن الـــلـــه سبحانـــــة وتعالـــى
حرم علينا أجساد الرسل الطاهرة
إننـى إذا رأيت خرافك فـي الصحراء
لا أســـــير حـــولهـــا أبـــدا
وإذا كنت لا أنظر إلـــى خرافـــك
فكيف يمكنني أن أمزق قلبك وعينك وروحك

وقد حرص الشاعر على عرض هذه الصورة الشعرية الطريفة التي وردت في الكتب التي تناولت قصص الأنبياء وذلك ليقدم من خلالها معادلا موضوعيا لحزن يعقوب على فقد ولده في صورة حيوان مفترس أنطقه الله ليشارك يعقوب حزنه وألمه على فقد ولده، خاصة وأن هذا الذئب فقد ولده وجاء إلى صحراء كنعان بحثا عنه. ويبكيان معًا مصيبتيهما بعد أن أنس يعقوب له ودعا الله أن يرد عليه ولده الغائب.

ثم ينتقل الشاعر بعد حديثه عن لقاء يعقوب مع الذئب البرئ إلى الجب الذي ألقى يوسف في غيابته ليلقى مصيره المقدر له. ويحرص الشاعر على السير بسياق القصة سيرته الطبيعية على النحو الذي جاءت عليه في كتب قصص الأنبياء.

هذا ويجمل بنا أن نوجز ما تبقى من أحداث رئيسية تكون السياق العام للقصة، وهي على النحو التالي–:

- خروج يوسف من البئر بواسطة أصحاب القافلة وبيعه عبدا لهم.
- مالك ذعر ـ صاحب القافلة ـ ينقله إلى مصر ويبيعه على عزيز مصر قطفير.
- اهتمام زوجة العزيز بتربيته إلى أن بلغ أشده واستوى عوده وافتتانها به ومراودته عن
- رفض يوسف مساومة نسوة مصر وزوج العزيز وتفضيله الإقامة في السجن.
- رؤيا صاحبي السجن وتفسيرها والدعوة إلى وحدانية الله.
- رؤيا ملك مصر وتفسيرها وإعلان براءة يوسف وتقلده منصب العزيز.
- انتشار المجاعة في أطراف الدنيا وقدوم اخوة يوسف إلى مصر طلبا للغلة وعودتهم إلى كنعان لإحضار بنيامين تلبية لطلب يوسف.
- –عودة الإخوة إلى مصر واحتجاز يوسف لبنيامين بعد اتهامه بسرقة صاع الملك.
- عودة الإخوة إلى مصر مرة ثالثة وإعلان يوسف عن شخصيته واعتراف الإخوة بجريمتهم.
- قدوم أسرة يعقوب إلى مصر وسجودهم أمام يوسف ورفع أبويه على العرش.
- زواج يوسف من زليخا ووفاة يعقوب ثم وفاة يوسف .

وهكذا يتضح لنا من السياق السابق للأحداث وتسلسلها الدرامي مدى حرص الشاعر على السير بأحداث قصته إلى " ذروتها " الطبيعية والمنطقية.. كما كانت هذه الأحداث في مجموعها تمثل سلسلة مترابطة الحلقات تسلم كل حلقة منها ما تحمله من أحداث إلى شقيقتها لتصعد بها نحو القمة أو الذروة، إلى حيث يوسف وقد لبث في سجنه بضع سنين بسبب نسيانه ذكر ربه.. ثم يأخذ خط الأحداث بعد ذلك في النزول من القمة في اتجاه الحل. وذلك حين رأى

الملك رؤياه " السنبلات والبقرات السبع " وتذكر ساقيه مهارة يوسف في تفسير الرؤى، فأرسل الملك في استدعائه ليفسر له رؤياه. وأخذ خط الأحداث في الإنحدار فرأينا يوسف يعتلى منصب العزيز وتحقق رؤياه فيسجد له أبواه وأسرته، وبهذا يصل بنا المؤلف إلى حل عقدة القصة والذي كان مطلبا أثار اهتمام القارئ وظل يتابع أحداثها تطلعا للوصول إليه.

وحتى يكتمل شمل أسرة يعقوب وترفرف السعادة على الجميع نرى الشاعر وقد وضع زليخا بعد أن هرمت في طريق يوسف مرة ثانية. وأعاد الله عليها شبابها وجمالها بطلب من يعقوب [٢٩] وتزوجت بيوسف وعاش الجميع تحت سقف واحد مؤمنين وموحدين إلى أن اختار الله يعقوب إلى جواره وتبعه يوسف فيما بعد . وقد جاءت نهاية القصة منسجمة مع إطارها العام باعتبارها قصة تلعب فيها المشاعر الإنسانية دورا هاما ومؤثرا في حركة الشخصيات وأفعالها.

هذا .. وقد مر بنا ـ من خلال سياق القصة – كيف لعبت الانفعالات الإنسانية ـ بأنواعها المختلفة ـ دورا هاما في تشكيل حياة بطل القصة المحوري " يوسف "، وبالتالي فإن لها وزنها وثقلها وتأثيرها في تطوير أحداث القصة فقد كان حب والده له وإيثاره بعطفه وحنانه سببا رئيسيا في تحريك مشاعر البغض والحسد في قلوب اخوته نحوه، ودفعهم هذا الحقد إلى تدبير مؤامرة للتخلص منه. وما ترتب على ذلك من أحداث انتهت ببيعه عبدا إلى عزيز مصر. ثم فقد يعقوب بصره حزنا وكمدا عليه.. وفي المرحلة الثانية من حياة يوسف كانت المشاعر الإنسانية التي امتلأ بها قلب زليخا من حب له وافتتان بجماله وفتوته دافعا إلى محاولتها المستمرة لمطارحته الهوى ودفعه إلى عصيان ربه، وما تبع ذلك من تشهير به وبأخلاقه في مجتمع مصر، ثم إيثاره السجن[٣٠]. منجى وملجأ وطاعة لله. وقد وفق الشاعر في إبراز هذه المشاعر المتباينة حتى ظهر لنا تأثيرها الواضح في تطوير أحداث القصة ودفعها نحو الذروة الدرامية لها، وإبراز الجوانب النفسية لشخصيات القصة.

هذا .. وتحفل قصة يوسف وزليخا بعدد كبير من الشخصيات التي تؤدى أدوارها التي رسمت لها في إطار التسلسل الدرامي لأحداث القصة.. وشخصية يوسف هي الشخصية المحورية التي تدور حولها وتقوم على كتفيها أحداث القصة. وتنعكس ردود أفعال الآخرين على ما

يصدر عن هذه الشخصية من أفعال وأقوال، ولما تتصف به هذه الشخصية من مواصفات حسية ومعنوية خاصة. فلقد كان يوسف منذ صغره جميل الطلعة كالقمر ليلة البدر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والقمر. وكان هذا الجمال ـ الذي أسرف الشاعر في وصفه ـ أحد أسباب حب والده له وحسد إخوته وحقدهم عليه، مما حرك في نفوسهم مشاعر البغض والضغينة والكره نحوه فاندفعوا إلى إلقائه في الجب ثم بيعه عبدا . وكان هذا الجمال نفسه سببا آخر لتحريك مشاعر العشق والهوى في نفسية زليخا تجاه يوسف، فاندفعت هي الأخرى ـ بدافع من غرائزها ومشاعرها المتلاطمة إلى الخطة تلو الأخرى لمطارحته الهوى. حتى كان ما كان من افتضاح أمرها بين أهلها وقومها . ولولا ما طبعت عليه نفس يوسف من الإيمان بالله والخوف من عقابه لما آثر السجن ووحشته إرضاء وطاعة لخالقه وبارئه.

وإلى جانب الصفات الحسية التي تتميز بها هذه الشخصيات، فهناك الصفات المعنوية التي اختص الله بها يوسف عن سائر خلقه ممن تعامل معهم داخل إطار هذه القصة. فقد اختصه الله بعلم تفسير الرؤى. وكان لهذه الخاصية تأثيرها الهام في مجريات أحداث هذه القصة على نحو ما مر بنا من قبل.. ويوسف شخصية تتميز بالصبر على تحمل المكاره والصعاب والإيذاء من الغير، من قبيل " محنة الاتهام بالسرقة من قبل عمته، ومحنة التعذيب والعطش في الصحراء من قبل إخوته ومحنة الجب وظلامه والخوف من المصير المجهول، ومحنة العبودية وقد التف الناس حوله في أحد ميادين مصر يزايدون على ثمنه، ثم محنة امرأة العزيز ومراودته عن نفسه واستعصامه بخالقه ؛ وأخيرا محنة السجن ومواجهة المجاعة التي حلت بمصر بعد أن من الله عليه بمنصب العزيز."

هذا عن الشخصية الرئيسية في القصة.. أما عن الشخصيات الثانوية فهي كثيرة نظراً لضخامة أحداث القصة تعدد أزمنتها وأمكنتها.

ففى أرض كنعان " البيئة الأولى التي نشأ فيها يوسف " هناك شخصيات عديدة تظهرعلى مسرح الأحداث لتؤدى أدوارها المنوطة بها كلما دعت الحوادث إلى ذلك. فيظهر الإخوة والوالدة والعمة في أرض فلسطين حيث كان يقيم يوسف معهم، ويختفون حيث رحل، وتظهر

السيارة بقيادة مالك بن ذعر كوسيلة لانتقال يوسف من البدو إلى الحضر في مصر ويمضون إلى غير رجعة بعد أن باعوه إلى عزيز مصر. ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها ومربيتها ونسوة المدينة كل يؤدى دوره المرسوم له حين يكون مسرح الأحداث بيت العزيز، ثم يختفون بانتقال يوسف إلى السجن، وهناك يظهر ساقى الملك وخبازه ويتركه أحدهما إلى غير رجعة ويعود الآخر إلى الظهور مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه. ويظهر الملك على مسرح الأحداث فترة تنتهى بتعيين يوسف عزيزا لمصر وإعلان براءته أمام المجتمع المصرى وبحضور زليخا ونسوة المدينة، ويختفى الملك ونسوة المدينة وامرأة العزيز ليظهر إخوة يوسف من جديد ويبقون على المسرح حتى ينتقلوا إلى مصر ومعهم يعقوب.. تعود زليخا للظهور من جديد وهي عجوز شمطاء إلى أن قبل الله دعاء يعقوب لها فيعودإليها شبابها وجمالها وفتنتها وتتزوج بيوسف وتتجه إلى الزهد والاستغراق في حب الله، ثم يتجه قلبها ثانية إلى حب يوسف ويعيشان معا إلى أن يرحلا عن الدنيا الفانية.

وقد وفق الشاعر في الاستفادة من عنصر الحوار ونجح في توظيفه دراميا لتطوير أحداث القصة وحسن التعبير عن مواقف شخصياتها . وكان نجاح الشاعر في هذا المجال راجعا إلى عدة عوامل نوجزها فيما يلى:

(أ) أنه ركز اعتماده على عنصر الحوار في التعبير عن المواقف المهيجة للشجون والمحركة للعواطف الإنسانية مما ولد عند القارئ شعوراً من التعاطف الإنساني مع شخصيات القصة.

(ب) اختار الشاعر فنين من فنون البلاغة ملائمين لطبيعة القصة وهما التلميح والاقتباس، فقد اقتبس آيات من سورة يوسف في القرآن الكريم ووضعها على لسان شخصيات القصة، وخاصة في المواقف المؤثرة، من قبيل حادث المراودة ومشهد اعتراف زليخا بجريرتها أمام الملك، واعتراف إخوة يوسف ـ بجريمتهم في حقه..

(ج) استغلال الشاعر عنصر المناجاة للتعبير عن المواقف المهيجة للعواطف الإنسانية التي تموج بها أحداث القصة.

(هـ) تأكيد الشاعر في افتتاحيات الفصول على أنه يروى قصة واقعية عن رواة صادقين مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه..

أما عن أسلوب الشاعر في التناول الفنى للقصة، فقد حرص ذلك الشاعر على أن يقدم القصة في إطار إنساني ذي طابع شعبي يضمن به رواجها بين الناس. ومن المعروف أن التوراة وكتب القصص القرآني وكتب التفسير قد جعلت للقصة مذاقا شعبيا محببا لدى العامة والخاصة على السواء. بينما أكسبها القرآن الكريم منزلة دينية وأدبية رفيعة، وجعل منها نموذجا ومثلا لا ينسى في العظة والاعتبار والصبر على المكاره وانتصار الحق على الباطل.. ومن هنا كان حرص الشاعر على الاستفادة من كل تلك المصادر بالقدر الذي يخدم البناء الفني للقصة ويضمن لها وضعًا أدبياً لدى مختلف الناس. ولتحقيق هذا الهدف اختار الشاعر أن يبدأ القصة من حيث بدأت في التوراة مصورا مراحل الصراع الإنساني بين الخير والشر. فقدم لنا الصراع بين " عيصا ويعقوب " على الفوز ببركة اسحق وفرار يعقوب إلى الشام خوفا على حياته. وانتقل الصراع فيما بعد إلى أولاد يعقوب أنفسهم إلى أن انتهى ببيع يوسف عبدا في مصر. واتجه الشاعر بعد ذلك إلى الغوص في أعماق نفسيات أبطال قصته لإخراج ما يموج بداخلها من مشاعر وأحاسيس إنسانية قبل الأحداث التي تجرى حولهم. ولهذا نراه يخصص مساحة واسعة من رقعة العرض لبكائيات يعقوب في بيت الأحزان[٣١]. حتى ابيضت عيناه كمدا وحسرة وألما على فراق يوسف. كما قدم مساحة واسعة للمشاهد التي يقف فيها يوسف مناجيا ربه شاكيا له ظلم إخوته وقسوتهم عليه. كما حرص الشاعر على تضمين قصته مشهد بكاء يوسف عند قبر أمه شاكيا لها قسوة إخوته وظلمهم وتجبرهم. كما عمل الشاعر على وصف مشاعر الخوف والقلق التي انتابت يوسف داخل البئر إلى أن هبط عليه جبريل وأشاع في نفسه الطمأنينة والسكينة..

ولما انتقل يوسف من بادية كنعان إلى معيشة مرفهة في قصر زليخا لم ينس أحزانه على فراق والده، فكان يخرج ليلاً إلى الصحراء ويقف في ظلمتها مناجيا ربه شاكيا له قسوة الحياة ووحشتها بعيدا عن أهله وذويه.

هذا وقد حرص الشاعر على أن ينقل لنا كل هذه المواقف الإنسانية لأبطال قصته داخل إطار مأساوي حزين. ويحمد له أنه لم يكن مجرد راو لأحداث تصور وقائع تاريخية مجردة، بل إنه كان كثيرا ما يحدد موقفه من شخصيات قصته ويتعاطف مع جوانب الخير في تلك الشخصيات.

هذا.. ومن العناصر الإيجابية في أسلوب الشاعر في هذه المنظومة استغلاله لشخصية يوسف وما تمثله من مكانة دينية ـ باعتباره نبيا مرسلا – لتوجيه النصح والإرشاد إلى بنى البشر عامة. فالنصح يستحب ويقبل من الأنبياء والرسل.

بالإضافة إلى أن يوسف هو الشخصية المحورية التي تدور حولها أحداث القصة والتي ظهرت في مراحل حياتها المختلفة في صورة " مأساوية " تثير في النفس الشفقة والرحمة وتحمل الإنسان على التعاطف معها في مواقفها المختلفة داخل أحداث القصة.. كما حرص الشاعر على أن تتسم الأحداث الرئيسية لقصته بالصدق والموضوعية، وقد تم له ذلك بفضل أمانته في نقل الأحداث من مصادرها الدينية سواء في التوراة أو القرآن الكريم أو كتب التفسير المختلفة.

هذا ...ومن السمات الأخرى لأسلوب هذا الشاعر حرصه على أن تنتهى القصة نهاية سعيدة وذلك بعد أن سيطر جو مأساوي على كثير من فصولها وأحداثها، فزوج زليخا بيوسف بعد أن أعاد الله عليها شبابها وجمالها وحسنها، وبعد أن تركت الدنيا واتجهت إلى الزهد، فتح الله طاقة حب في قلبها فأقبلت على الحياة مع يوسف ورزقهما الله بالذرية الصالحة.

الهوامش

(١) الشاهنامة : الترجمة العربية، عزام : المدخل ص ٢١.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥.

(٣) أمين بدوى : من روائع القصص في الأدب الفارسى : ص ٣ ، مصر .

(٤) الدولة الساسانية تأسست بسعى وجهود سادن بيت نار اصطخر (إحدى مدن إيران القديمة) والذي استطاع أن ينشئ إبنه بابك تنشأة عسكرية، ومن بعده إبنه اردشير الذي استطاع بدوره اخضاع الملك أردوان الخامس آخر ملوك الطوائف وأقام الدولة الساسانية على عمادين : أولهما وحدة الإقليم وثانيهما دين زرادشت... وكان ذلك بين أعوام [٢٢٦ – ٢٤١ م].

وكان نهاية هذه الدولة على يد الفتح العربي في معركة نهاوند وقتل فيها آخر ملوك الساسانيين "يزدجرد الثالث"، واستولى العرب على عاصمتهم المدائن عام [٢١ هـ / ٦٤٢ م] نقلاً عن : د. يحيى الخشاب : التقاء الحضارتين العربية والفارسية ص ٢٣

(٥) المانوية : هم أتباع ماني، وهو واحد من أنبياء الفرس فيما قبل الإسلام. بشر بدينه في زمن الملك شابور الأول ثاني ملوك الدولة الساسانية (٢٤١ –٢٧٢ م). وقد بدأ دعوته في العشرين من مارس ٢٤٢. ألف ماني كتابا باللغة السريانية وله كتب باللغة البهلوية مثل " سفر الأسرار " ، وكتاب الأصلين، ورسالة الجبابرة، والإنجيل.

وخلاصة الديانة المانوية أن العالم مصنوع مرتب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا . وأنكرت المانوية وجود شيء من أصل قديم وأن هذين الأصلين لم يزالا قويين حاسين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة، والفعل، والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشمس والظل. وأن اللذة للنور خاصة وأن الأذى للظلمة خاصة لا للنور وقد ثار عليه أتباع النبي الآخر زرادشت فنفوه خارج إيران، ثم عاد في عهد هرمزد الأول (٢٧ –٢٧٣م) حتى نجح رجال زرادشت أن يعدل الملك هرمزد عن مذهبه وأن يعود إلى ملة زرادشت (٢٧٣– ٢٧٤م) وانتهى الأمر بقتله..

(د. يحيى الخشاب : التقاء الحضارتين العربية والفارسية : ص ٣١ – ٣٦)

(٦) الشاهنامة : الترجمة العربية : عزام : المدخل : ص٢٦.

(٧) أمين بدوى : القصة في الأدب الفارسي ص٥٣. ط. دار المعارف. ١٩٦٤م.

(٨) الشاهنامة : من أقدم الكتب الفارسية التي نظمت التاريخ الأسطوري الذي عرفته إيران منذ أقدم الأزمنة حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي وهي بمثابة سجل لتاريخهم كما أنها تعد تمجيدا للعبقرية الآرية والحط من قدر الشعوب السامية ويصفونها بأنها قرآن القوم وسجل خالد لعظمة القومية الإيرانية التي اتصف

بها الفرس منذ أقدم عصورهم وذلك لما عرفوه من أهمية كبيرة لمحتوياتها خاصة فيما يتعلق بالأساطير والخرافات الشعبية.

(الشاهنامة . المدخل – الترجمة العربية عزام ص ٧١)

(٩) المثنوى ضرب من الشعر فارسي النشأة، لم تعرفه الأشعار العربية القديمة تكون فيه القافية في جزئي البيت الواحد وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات. وكل المنظومات الطويلة في اللغة الفارسية . سواء كانت قصصية أو تعليمية . تصاغ في هذا الضرب من النظم.

(براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي . ت : الشواربى: ص٣٧)

(١٠) الفردوسي : يقول عنه الإيرانيون أنه واحدُ من أنبياء الشعر الثلاثة . بل هو في مقدمتهم وأما الإثنان الآخران فهم الأنوري والسعدي . تتفق أغلب المصادر التاريخية على أن اسمه بالكامل الحسن بن علي الطوسي ، وأنه ولد في مدينة طوس إحدى مدن خراسان عام ٣٢٣ هـ . ٩٣٥ م . وأنه فرغ من نظم الشهنامه عام ٤٠٠هـ ١٠١٠ م وأن عمره في ذلك الوقت قد نيف على الثمانين ، وأنه أهداها إلى السلطان محمود الغنوي ٤٠١ هـ ، وقد وقعت وفاته عام ٤١٦ هـ . ١٠٢٥ م .

(١١) الشاهنامة : من أقدم الكتب الفارسية التي نظمت التاريخ الأسطوري الذي عرفته إيران منذ أقدم الأزمنة حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي وهي بمثابة سجل لتاريخهم كما أنها تعد تمجيداً للعبقرية الآرية والحط من قدر الشعوب السامية ويصفونها بأنها قرآن القوم وسجل خالد لعظمة القومية الإيرانية التي اتصف بها الفرس منذ أقدم عصورهم وذلك لما عرفوه من أهمية كبيرة لمحتوياتها خاصة فيما يتعلق بالأساطير والخرافات الشعبية .

(الشاهنامة . المدخل . الترجمة العربية عزام ص ٧١)

(١٢) أرمان : ناحية بين مملكة إيران وتوران .

(١٣) البطل المغوار رستم : بن دستان بن سام بن نريمان بن كرشاسب : هو بطل من أبطال الشاهنامة لا ثاني له بين الأمم ، وهو صاحب المكانة الأولى بين أبطال إيران . تصف الشاهنامة لحظة مولده : " قد صوره الله تعالى على خلقة تعجب العيون وتروق القلوب " . ولما ولدته أمه قدموه لها فبدى من ضخامته كأنه ابن عشر سنين ، فلما رأته أمه تبسمت ضاحكة فقالت " برستم " أي قد خلصت فسمي الطفل " رستم" وكانت له عشر مرضعات يمتص نخب ألبانهن حتى ترعرع ، ولما بلغ ثماني سنين صار كالنخل الباسق ، والكوكب الدري في الظلام الغاسق . يحكى في بهاء المنظر ، ورشاقة القد وأبهة الجلال . وكان لا يحمله مركوب غير الفيل لضخامة جثته . وفي شبابه وفتوته خاض رستم حروباً كثيرة أمام أعداء إيران وكانت الغلبة والنصر له ولأمته كما حارب الجن والمردة والشياطين وسحقهم بقوته الخارقة ، وتقول الشاهنامة أنه عاش زهاء أربعمائة سنة . وهو ينتسب إلى أسرة سام ابن نريمان . ولهذه الأسرة المكانة الأولى في أساطير الشاهنامة . وتلك الأسرة تنتمي إلى أول عهود الشاهنامة

وهو العهد البيشدادي . وهم أول من تعرفهم الأساطير الإيرانية . (نقلاً عن الشاهنامة : الترجمة العربية جـ١ ص ٧٥ وما بعدها)

(١٤) خسرو الدهلوى: من شعراء العصر المغولي الأول القرن السادس الهجري، الذي يزدان بشعراء عظام نذكر منهم فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي وسعدى الشيرازي، ولد في "پتيالى" سنة (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) وتوفي في دلهى (٧٢٦هـ ١٣٢٥م). ويقول مؤرخو الأدب في إيران إن مرتبته في الشعر تلى نظامى الگنجوى، ويأتي في مقدمة مؤلفاته منظومة "خسرو وشيرين.

(١٥) نقلا عن براون، تاريخ الأدب في إيران: ت: الشواربى: ص ٦٨٦.

(١٦) شيخى: معروف باسم الحكيم يوسف سنان الدين. عاش في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي. من المعتقد أنه عاش في أثناء حكم مراد الأول. ويقال إنه ولد فيما بين (١٣٧٣م) إلى (١٣٧٦م) ويرجع إلى أصول تركمانية – من مدينة كوتاهية.

(١٧) عطائي: يلقب بنوعى زاده. شاعر عثماني، عاش في القرن السابع عشر الميلادي، وكان عالما ومؤرخا وفقيها على المذهب الحنفي، واسمه الحقيقي عطاء الله، ووالده يحيى ومشهور بنوعى. توفى ١٦٠٥م.

(١٨) آهي: اسمه نصر الدين محمود الهوئي نسبة إلى مدينة هوئي في منطقة أذربيجان. من المعتقد أنه ولد ١٦٧هـ/ ١١٧٥م)، وعاش ٩٣ سنة، تلقي تعليمه الأولى في بلدته ثم انتقل إلى خراسان والتحق بحلقة العلم التي كان يلقيها فخر الدين الرازي، وفي خراسان نال فيضا صوفيا راقيا على يد تلامذة أحمد يسوى إمام الطريقة الصوفية اليسوية.

(١٩) وحشي: كمال الدين وحشي البافقي الكرماني من شعراء العصر الصفوي، ولد في قصبة بافق بالقرب من يزد، وتوفي عام ٩٩١ هـ من أهم أعماله غزلياته التي تتميز بالمشاعر الفياضة، نظم عدة منثويات قلد فيها نظامى الگنجوى، وهي: خلد برين، ناظر ومنظور، وفرهاد وشيرين. هامش الشعراء الثلاثة نقلا عن: فرهنگ أدبيات فارسي – زهراى خانلرى طهران ١٣٤٨ هـ ش.

(٢٠) كمال الخجندى: من شعراء الصوفية في القرن الثامن الهجري، توفي في مدينة خجند عام ٨٠٣ هـ – وهي إحدى بلاد ما وراء النهر. كان أستاذا في فن الغزل الصوفي، وكان حافظ الشيرازي يقتدي به في غزلياته. طبع ديوانه في تبريز (المرجع السابق نفسه).

(٢١) الأنوري: أقدم شعراء العصر المغولي وأعظمهم شهرة. وهو واحد من أنبياء الشعر الثلاثة عند الفرس مع: الفردوسي والسعدي. ولد في قرية مهنة من قرى "أبيورد"، ودرس في مدينة طوس. توفى ٥٨١هـ – ١١٨٩م. براون: تاريخ الأدب، ت: الشواربى ص ٤٦٢.

(٢٢) خاقانى: من شعراء القرن السادس الهجري، واسمه أفضل الدين إبراهيم بن على الشيروانى. ولد سنة (٥٠٠هـ / ١١٠٦–١١٠٧م) في مدينة گنجة، وكان أبوه نجارا وكانت أمه مسيحية من النساطرة ثم اعتنقت الإسلام. وهو

تلميذ لشاعر مجيد اسمه أبو العلاء الگنجوى له مثنوية سميت "تحفة العراقين" (براون: تاريخ الأدب في إيران: ت: الشواربى ص ٤٦٢).

(٢٣) ظهير الدين الفاريابى: اسمه ظهير الدين طاهر ابن مُحَمَّد الفاريابى، وهو مشهور ببيت من الشعر يقول فيه: (اسرق ديوان ظهير الدين الفاريابى، ولو وجدته في الكعبة (، ولد في بلدة فارياب، والتحق بخدمة طغرل بن أرسلان آخر ملوك سلاجقة فارس، وتوفي في ٥٩٨هـ – ١٢٠١م.

(٢٤) خسرو: خسرو في اللغة الفارسية بمعنى: ملك؛ سلطان؛ عظيم الشأن، وهو كسرى الثاني الملقب پرويز، وهو ابن هرمز بن كسرى أنو شروان، وتذكر الشاهنامه أنه كان من أشد ملوكهم بطشا، وبلغ من البأس والنجدة والنصرة وجمع الأموال والكنوز ما لم يتهيأ لغيره من ملوكهم، ولذلك سمى "پرويز"، " وتفسيره المظفر أو المنتصر. وقد ملك ثمانية وثلاثين سنة (٥٩٠ – ٦٢٨م) وهو آخر ملوك الفرس الكبار، وعهده في الشاهنامه أطول العهود، مليء بالقصص الممتعة ذات الأثر البليغ في الأدب الفارسي. وقد بلغ من سعة السلطان ما لم يبلغه ملك فارسى منذ دارا الأول، فقد استولى على مصر والشام وسائر ما كان يسيطر عليه الروم في آسيا. وفي عهده كانت معركة "ذي قار"، وكان پرويز كأبيه يحسن إلى النصارى، وكان لشيرين – وهي نصرانية – عليه سلطان عظيم، وعهده في الشاهنامه ٤٢٠٠ بيت. وكسرى تعريب لخسرو – لقب ملوك آل ساسان، وتجمع في العربية على: أكاسرة وأكاسر. نقلا عن الشاهنامه، ت: عزام: ج٢، ص٢٣٢.

(٢٥) نقلا عن براون: تاريخ الأدب في إيران، ت: الشواربي ص٥٣٧.

(٢٦) نقلا عن: براون، تاريخ الأدب في إيران، ت: الشواربى، ص ٥١٣ – ٥١٥.

(٢٧) يقول فيها:

إقرأ الـ تلك أيات
حتى تعرف الحكايات
كلها قصة يوسف
من قلو رب العالمين
والعقل يجب أن يكون قد قرأ القصة أولا
ليعرفها جيدا
سمعت من كلام العلماء
ذوى العقول الراجحة والبلاغة الواضحة
أنه ذات يوم كان الرسول الكريم
فى بيت على الوصى
وكان يجلس حول سيد الأنبياء

على الوسى وفاطمة
الحسن والحسين سبطا البتل
فى مكان واحد من حضن الرسول
وكان الرسول يقبلهما
وعلى سعيد برؤيتهما
وفى الحال هبط جبريل من عندالله
على الرسول الطاهر
وفى البداية أقرأه السلام
ثم سلمه رسالة فحواها
أن الخالق المنان يقول :
إنك سعيد الآن بالحسن والحسين
هكذا قد صار حكمنا عليهما
بأنهما سيلاقينا الظلم والجفاء من بعدك
سوف تجز رأس الحسين بخنجر
ويفتت السم كبد الحسن
ولما سمع الرسول هذا من جبريل
بكى وسأله من فوره من ذا الذى سيكون جافيا بعدنا
(٢٨) يقول فيها ما ترجمته :
نظمت شعرا في كل لون
وقلت فيه ما تاقت إليه نفس
ولو أن القلب كان متجاوبا معه
فقد بذرت بذرة التعاسة والشقاء
لقد سئمت غرس هذه البذور
فوضعت خاتما على لسانى وقلبى
فلن أنطق الآن بكاذب الأسماء
ولن أضفى على الكلام رونقاً بمقالى
لن أقول حكايات الملوك مرة ثانية
فقد شبع قلبى من عتبة الملوك

(٢٩) يقول الشاعر على لسان زليخا مخاطبة يعقوب ومعلنة ندمها وتوبتها :

لقد تبرأ قلبى من الوثنية
وندمت على الجهل الكفر
وإننى لأشهد بأن الله واحد
وهو واحد دائما ولا نظير له
إنه إله الفلك الدائر الأعلى
ورب البحر والجبل والأرض
فاشهد يا يعقوب المبارك الدين
ويارسول الله خالق العالمين
فلما سمع يعقوب منها هذا الكلام
تجدد لها طريق الدين القويم
فأخذ يتضرع إلى رب العالمين
ويحمده ويثنى عليه
وقال لها في الحال :
يا سيدة السيدات المفاضلة
ماذا تطلبين الآن من الله
وماذا يطلب قلبك من الدنيا
فقالت زليخا ليعقوب
إن لى من الله أربع حاجات
وهو الشهيد على في السر والعلن
واحدة : ألا يتركنى في الكفر
ويخلصنى من براثن الشيطان
ويمن على بالإسلام
ويخرجنى من الألم إلى الراحة
ثانيا أن يجعلنى شابة من جديد
ويصيرنى كما كنت
ثالثا : أن أكون بكرا بخاتم الله
ويحفظ على سلامة بدنى وجمالى

رابعا : أن يكون يوسف زوجى
وأن يحب قلبى ويهوانى
(٣٠) وفى ذلك يقول الشاعر :
بعد ذلك ذهبت النسوة من هذا المحفل
إليه واحدة واحدة
فقالت له كل واحدة
إن زليخا تحبك بروحها
يا من وجهك مستغنن بالحسن
ويطلبك قلبها ليل نهار
وتريد روحها أن تسلمك
كل أموالها
فيجب عليك أن تطلب رضاها
لأن أحداً لا يرى من العصيان خيراً
وعليك أن لا تعرض عن قولها مرة ثانية
ولا تستعض عن صداقتها بالأقوال
فإنه سيصيبك منها القيد والسجن
ويصيبك منها بلاء كثير
فكان يوسف يقول : إن السجن مناسب
وقلب يهوى القيد والسجن
إن قلبى لا يطلب هوى زليخا
ولا يصير قلبى في طريق مرادها
وقولوا لها أفعلى كل ما ترينه جائزا
لأن الله شهيد على وعليك
(٣١) يقول الشاعر :
وحين يسمع يعقوب هذه المصيبة على هذا النحو
ورأى ذلك القميص ملطخا بالدم
قال : أيها القميص الجافى
إنك لم تخرج وحدك من عندى

فما دمت لم تذهب وحدك من عندى
فلماذا عدت وحدك دونه؟
كان يحتمى بك ابنى
ونفسى ومعشوق روحى
والآن تحوى دمه
فأنت علامة سوء واضطراب
إنك جئت لى ذكرى من يوسف
ذهبت حسنا وجئت سوءا